

الفصل الثالث

القشيري وكتابه لطائف الإشارات

أ. ترجمة القشيري

الإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري هو من العلماء المشهورين في التاريخ الإسلامي. تميز بعلمه الواسع في مجالات مختلفة من العلوم الإسلامية. فهو عالم في التفسير والحديث، وفقهه على المذهب الشافعي، وله معرفة عميقة في العقيدة على منهج الأشاعرة. كما كان بارعاً في اللغة العربية والأدب، وله قدرة خاصة في الشعر والكتابة. اشتهر بأسلوبه الجميل في الوعظ والإرشاد، وكان له تأثير كبير في علم التصوف في زمانه.^١

ينتسب الإمام القشيري إلى قبيلة بني قشير. ولد في شهر ربيع الأول عام ٣٧٦ هجرية في قرية من نواحي نيسابور^٢ ومات يوم الأحد السادس عشر من ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هجرية وترك وراءه أبناءً صاروا من العلماء. ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق رحمهما الله رحمة واسعة.^٣ توفي والده في سن مبكرة، مما دفع أسرته إلى توجيهه نحو طلب العلم. تتلمذ على كبار العلماء في عصره، ومن أبرز

^١ عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، طبقات المفسرين العشرين (القاهرة: مكتبة وهبة، دون التاريخ)، ٧٣.

^٢ وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء لم أر فيما طوّفت من البلاد مدينة ومنبع العلماء.

أنظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، المجلد ٥ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٠)، ٣٣١.

^٣ عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، طبقات المفسرين العشرين، ٧٤.

شيوخه الذين كان لهم أثر عميق في تكوين شخصيته العلمية: ابن فورك والإمام أبو إسحاق الإسفراييني. استمر في خدمة العلم حتى وفاته.^٤

يرجع نسب القشيري من جهة أمه إلى العرب، فهي من قبيلة سُليم، ولها أخ يُدعى أبا عقيل السلمي الذي كان من كبار دهاقين منطقة أستوا. نشأ القشيري في هذه المنطقة وتلقى فيها تعليمه الأول. وعندما واجهت المنطقة أزمة اقتصادية، قرر أهلها إرسال مجموعة من أبنائهم إلى نيسابور لدراسة علم الحساب حتى يتمكنوا من المساعدة في تنظيم الشؤون الاقتصادية لمنطقتهم. وكان القشيري من بين هؤلاء الشباب الذين أرسلوا للدراسة.^٥

من أهم شيوخ القشيري الإمام أبو علي الدقاق الذي أعجب بأخلاق تلميذه وجده في طلب العلم. وقد رأى فيه الدقاق من حسن الخلق والتواضع والاستقامة ما جعله يختاره زوجاً لابنته فاطمة، مفضلاً إياه على جميع من تقدموا لخطبتها من أقاربها. أما عن ذرية القشيري، فقد رُزق بابنة واحدة هي أمة الرحيم، التي أصبحت أمّاً للعالم عبد الغافر الفارسي. كما رُزق بستة أبناء، كلهم حملوا اسم "عبد الله" وصاروا من العلماء البارزين.^٦

يتميز الإمام القشيري بمنهج فريد في فهم وتفسير العلوم الإسلامية، وخاصة في مجال التصوف. فقد قدم التصوف في أنقى صوره وأصفى مظاهره، حيث التزم بثلاثة أمور الرئيسية: الاتباع الدقيق

^٤ منيع بن عبد الحليم محمود، *مناهج المفسرين* (القاهرة: دار الكتاب المصري، ٢٠٠٠)، ٨٥.

^٥ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، *لطائف الإشارات*، المجلد ١ (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، دون

التاريخ)، ٨.

^٦ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، *لطائف الإشارات*، المجلد ١، ٩.

للسنة النبوية، وتوضيح دقائق الطريق الصوفي، وتنقية التصوف مما علق به من بدع ومظاهر غير صحيحة.^٧

شاءت الأقدار أن يحضر القشيري مجلس الإمام أبي علي الدقاق، فوجد فيه ما كان يبحث عنه من علم وهداية. فقد تميز الدقاق بإخلاصه وتقواه، وكان لكلماته نور خاص يضيء قلوب طلابه ويقربهم إلى الله. وقد كانت فطرة القشيري الصافية مهياً تماماً لسلوك الطريق الصوفي. ولما رأى الإمام الدقاق ما يتمتع به القشيري من ذكاء وإخلاص، قبله في حلقة مريديه، ثم جعله من خواص تلاميذه، وفي النهاية اختاره زوجاً لابنته.^٨

تأثر القشيري كثيراً بشيخه أبي علي الدقاق، الذي كان له أثر عميق في تكوين شخصيته الصوفية. وقد وصفه المناوي بأنه كان إمام عصره وعالم زمانه، متميزاً في العلم، حسن السيرة، نقى السيرة، متبعاً طريقة الجنيد في التصوف. تلقى علم الفقه الشافعي عن كبار العلماء مثل القفال والحصري، وبرع في أصول الفقه واللغة العربية حتى صار مقصداً لطلاب العلم. ثم اتجه إلى التصوف وأخذ عن النصرآبادي. وذكر ابن شهبة أن الدقاق تفوق على شيوخه علماً وحالاً، وكانت له كرامات ظاهرة ومكاشفات روحية عميقة. كما استفاد القشيري من علماء عصره وتبادل معهم التأثير العلمي، ومن أبرزهم الإمام السلمي وإمام الحرمين الجويني.^٩

^٧ منيع بن عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، ٨٥.

^٨ منيع بن عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، ٨٥.

^٩ منيع بن عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، ٨٥-٨٦.

وقد ألف الإمام القشيري عددا من المؤلفات الهامة تدور في مجملها حول التصوف، سواء أكان تحديدا لماهيته، أم فهما للقرآن على ضوئه، أو مناقشة للأمور التي تلازمه كالذكر ونحوه. ومن أهم هذه المؤلفات :

١ - الرسالة القشيرية

٢ - تفسيره المشهور: لطائف الاشارات

٣ - التيسير في التفسير

٤ - حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح

٥ - المعراج

٦ - شكاية أهل السنة

٧ - الفصول

٨ - الوحيد النبوي

٩ - اللمع

١٠ - شرح أسماء الله الحسنى^{١٠}

وهذه المؤلفات انما تدل على مهارة صاحبها من علوم الشريعة والحقيقة، ورعايته في الحديث لما يقتضيه كل من العلمين، فلم يكن في حديثه عن التصوف إلا معبرا عن الشريعة، ولم يكن في حديثه عن الشريعة إلا موضحا لها ببعض المفاهيم الصوفية.^{١١}

^{١٠} منيع بن عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، ٨٦.

^{١١} منيع بن عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، ٨٦.

ب. كتاب لطائف الإشارات

هذا تفسير شامل للقرآن الكريم يتبع المنهج الصوفي وطريقة أهل المجاهدات والأحوال. قام المؤلف قبل هذا العمل بتأليف تفسير آخر وفق منهج المفسرين التقليدي، وأطلق عليه اسم "التيسير في التفسير". ثم قام بتأليف هذا التفسير الذي يشتمل على التفسير الإشاري، حيث يخاطب القلوب والعقول بأسلوب يختلف عن باقي كتابات المتصوفة التي تتسم بالتعقيد والغموض. ويتميز أسلوبه بأنه أسهل فهماً مقارنة بالعديد من التفاسير الصوفية الأخرى^{١٢}.

ألّف كتاب "لطائف الإشارات" في سنة ٤٣٤ هجرية، وجاء في ثلاثة مجلدات. ١٣ سمي القشيري تفسيره "لطائف الإشارات" لأن الإشارة تمثل لغة التواصل بين المحب والمحبوب. والإشارة هنا تعد تلميحاً للمعنى المقصود وليس تصريحاً به، وذلك لعجز الألفاظ عن احتواء المعنى الكامل. فكلام الله عز وجل يحتوي على أسرار، وهذه الأسرار بمثابة إشارات للصوفية تحدد فيها العبارات ما يريدون الإشارة إليه^{١٤}.

يعتبر هذا التفسير مستوى متقدماً يتجاوز مرحلة التفسير التقليدي الذي يعتمد على القواعد اللغوية والعلوم المختلفة التي يحتاجها المفسر. إنه يكشف عن الذوق الروحي ويظهر الإحساس الناتج عن المجاهدة. يتميز هذا التفسير بسهولة الفهم ووضوح العبارة مع الإيجاز الشديد. وقد استند في

^{١٢} محمد علي ايادي، المفسرون حياتهم ومنهجهم، المجلد ٣ (تهران: وزارت فرهنگ وإرشاد اسلامي، دون التاريخ)، ١٠٢٣.

^{١٣} محمد علي ايادي، المفسرون حياتهم ومنهجهم، المجلد ٣، ١٠٢١.

^{١٤} محمد علي ايادي، المفسرون حياتهم ومنهجهم، المجلد ٣، ١٠٢٣-١٠٢٤.

تفسيره على أقوال الصوفية دون ذكر أسمائهم أو مصادر كتبهم، مستخدماً عبارة "يقال" للإشارة إلى أقوالهم^{١٥}.

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة موجزة بعد خطبة الكتاب، شرح فيها دوافع تأليفه ومنهجه، ثم شرع في تفسير القرآن متبعاً ترتيب المصحف الشريف فقال :

"الحمد لله الذى شرح قلوب أوليائه بعرفانه، وأوضح نهج الحق بلائح برهان لمن أراد طريقه، وأتاج البصيرة لمن ابتغى تحقيقه، وأنزل الفرقان هدى وتبياناً على صفيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله معجزة وبياناً، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله، ورزقهم الإيمان بمحكمة ومتشابهه وناسخه، ووعدده ووعدده، وأكرم الاصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف اسراره وأنواره، لاستبشار ما ضمنه من دقيق اشاراته، وخفى رموزه بما لوح لاسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون وإليه يشيرون، وعنه يفصحون والحكم إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون."^{١٦}

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله :

"وكتابتنا هذا يأتى على ذكر طرف من اشارات القرآن على لسان أهل المعرفة اما من معانى مقولهم، أو قضايا أصولهم سلكنا فيه طريق الاقلال خشية الملل، مستجدين من الله تعالى عوائد المنة، متبرئين من الحول والمنة، مستعصمين من الخطأ والخلل، مستوفقين لاصوب القول والعمل ملتزمين أن يصل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ليختتم لنا بالحسنى بمنته وافضاله، وتيسر الاخذ فى ابتداء هذا الكتاب فى شهور سنة اربع وثلاثين وأربعمئة، وعلى الله إتمامه إن شاء الله تعالى عز وجل."^{١٧}

^{١٥} محمد علي ايادي، المفسرون حياتهم ومنهجهم، المجلد ٣، ١٠٢٤.

^{١٦} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١، ٥.

^{١٧} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١ (القاهرة: دار المعارف، دون التاريخ)، ٥.

أوضح المؤلف في هذه المقدمة أن كتابه هو عبارة عن ذكر جانب من إشارات القرآن كما يفهمها أهل المعرفة، وهذه الإشارات تتميز بالدقة والإحكام والاختصار. ومع أنها تعبر عن الحقيقة، فإنها لا تتعارض مع الشريعة، لأن كل شريعة لا تستند إلى الحقيقة تكون غير مقبولة، وكل حقيقة لا تلتزم بالشريعة تكون غير محققة للفائدة.

ولذلك يعتبر هذا التفسير مكماً لغيره من أنواع التفاسير وليس مخالفاً لها، حيث تتكامل جميع التفاسير، كل في مجاله، لفهم آيات القرآن الكريم.

كتب الدكتور إبراهيم البسيوني في تحقيقه للطائفة الإشارات أن القشيري المتميز بمنهجية الشافعية الأشعرية والسنية المتحفظة، قد نجح في دراسة الأسلوب القرآني مع التزامه بالحذر والاعتدال في استخراج الإشارات. وقد جاء كتابه لطائف الإشارات تعبيراً حقيقياً عن التصوف المعتدل، محاولاً التوفيق بين علوم الحقيقة والشريعة، مؤكداً تلازمهما وعدم تعارضهما، فالشريعة عبادة والحقيقة مشاهدة.^{١٨}

يتضح من خلال قراءة لطائف الإشارات أن المصطلحات الصوفية مستمدة أصلاً من القرآن الكريم، حيث نجد العديد من المفاهيم الصوفية ظاهرة في النص القرآني مثل الذكر والتوكل والرضا والولاية والحق والظاهر والباطن. وهذا يؤكد أن التصوف الإسلامي مستمد من القرآن الكريم، وليس كما يدعي بعض الباحثين من تأثره بالثقافات الأجنبية كال يونانية والفارسية والهندية والمسيحية.^{١٩}

^{١٨} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، الرسالة القشيرية، المجلد ١، ١٦.

^{١٩} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١، ٦.

تتجلى عبقرية القشيري في استنباط المعاني الصوفية حتى من الآيات التي لا تتضمن مصطلحات صوفية صريحة. فهو يستخرج من آيات الطلاق معاني الصحبة، ومن علاقة النبي بأصحابه دلالات عن علاقة الشيخ بمريديه، كما يستنبط من ظواهر الطبيعة كالشمس والقمر والمطر والجبال إشارات عميقة تتعلق بالرياضات والمجاهدات الروحية.^{٢٠}

ج. نظراته التفسيرية

أما منهج القشيري في كتابه لطائف الإشارات فيتميز بأنه يبدأ بالبسملة ثم يورد جزءاً من الآية المراد تفسيرها، ويشرح معناها معتمداً على اللغة العربية وقواعدها والأدب العربي والشعر، مع ذكر مختلف الآراء والتفسيرات المحتملة. وعند ذكره للروايات والأحاديث، فإنه غالباً لا يذكر السند أو المصدر، ويستخدم عبارات مثل "قليل" و"يقال" عند نقل الأقوال المختلفة، مع ذكر أسماء العلماء عندما ينقل عنهم مباشرة^{٢١}.

ويتميز تفسيره أيضاً بالجانب الصوفي، حيث يستنبط من كل آية إشارات روحية وتأملات صوفية، ويقدم هذه الإشارات بقوله "الإشارة منه". وبهذا يجمع تفسيره بين المنهج البياني والإشاري في أسلوب موجز ودقيق، محافظاً على التوازن بين ظاهر النص وباطنه، مع الالتزام بأصول اللغة والتفسير. وقد تميز أسلوبه بالدقة والإيجاز في عرض المعاني والإشارات، مما جعل تفسيره مرجعاً مهماً

^{٢٠} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١، ٦.

^{٢١} محمد علي ايادي، المفسرون حياتهم ومنهجهم، المجلد ٣، ١٠٢٥.

في التفسير الصوفي الإشاري. ويستند كثيراً في تفسير الآية وبيان معاني كلماتها على الأشعار والامثال.^{٢٢}

القشيري في منهجه العقدي باتباعه على المذهب السني في التصوف والمذهب الأشعري في العقيدة، وهذا واضح في معالجته للقضايا العقدية والكلامية. فنجدته يناقش مسائل مهمة مثل إثبات الصفات الإلهية وكونها زائدة على الذات، وكذلك قضية رؤية الله تعالى، ومسألة خلق القرآن، وموضوع أفعال العباد. وفي كل هذه المسائل يتبع رأي الأشاعرة مخالفاً بذلك آراء المعتزلة والعدلية.^{٢٣}

أما في الجانب الفقهي، فقد تميز بالإيجاز في عرض الأحكام الشرعية والفروع الفقهية، مع تركيزه على ذكر آراء المذهب الشافعي. وفيما يتعلق بمصادر تفسيره، فإنه يعتمد على الأحاديث النبوية، لكنه لم يميز بين الصحيح والضعيف منها. كما أنه أورد الكثير من الروايات الإسرائيلية، خاصة في قصص الأنبياء وأخبار الأمم السابقة، حتى وإن كانت هذه الروايات تتعارض مع العقل والنقل الصحيح، مما يثير استغراب القارئ عند الاطلاع عليها.^{٢٤}

إنما قصد القشيري إلى استمداد شيء نافع للصوفية يتدعم به رأى من آرائهم أو عمل من أعمالهم، فهذا هو مقصوده، وتلك مراميه، وإن لطائف الإشارات يمثل تمثيلاً صادقاً لمذهب القشيري في التصوف أكثر مما تمثله الرسالة فهو يغني عنها وهي لا تغني عنه.^{٢٥}

^{٢٢} محمد علي ايادي، المفسرون حياتهم ومنهجهم، المجلد ٣، ١٠٢٥.

^{٢٣} محمد علي ايادي، المفسرون حياتهم ومنهجهم، المجلد ٣، ١٠٢٥.

^{٢٤} محمد علي ايادي، المفسرون حياتهم ومنهجهم، المجلد ٣، ١٠٢٥.

^{٢٥} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١، ٣٠.

يرى القشيري أن الشريعة ليست مجرد قواعد جامدة، بل هي طريق روحي للتقرب من الله. فهو ينظر إلى كل حكم شرعي بأن له معنى ظاهرياً ومعنى باطنياً. فعلى سبيل المثال، عندما يتحدث عن الجهاد، لا يتوقف عند المعركة ضد الأعداء الخارجيين، بل يتعمق في المعركة ضد الهوى داخل النفس. ويعتبر الجهاد الأكبر هو الجهاد ضد النفس - أي تحويل القلب من مكان للردائل إلى مكان للفضائل والقرب من الله. لذلك، بالنسبة للقشيري، أداء الأحكام الشرعية ليس مجرد أداء طقوس أو التزام بقواعد، بل هو عملية روحية عميقة لتطهير ورفع الدرجة الروحانية للإنسان. فكل أمر وكل نهي له هدف سام لتقريب الإنسان من الله، وليس مجرد استيفاء شكلي لواجب^{٢٦}.

أن القشيري فيما يتعلق بالعبادات يستثمر كل فرصة ليبين ضرورة التزام العبد بأدائها مهما تعمق في الفناء عن نفسه، فلا يوجد أي عذر لإسقاطها عنه أو تركها. كما نلاحظ أنه يهتم اهتماماً واضحاً بالتشجيع على التعمق في بواطن العبادات، وفهم جواهرها الحقيقية، فهي ليست مجرد رسوم ظاهرية يؤديها الجسد فقط، وإنما هي ذات مقاصد عميقة.^{٢٧}

من خلال جميع هذه المواقف يتضح مذهبه في التصوف إضافة إلى مذهبه في علم الكلام، وهنا يجب أن نشير إلى أنه سعى إلى حل ما عجز عنه المتكلمون عن طريق العلم الصوفي. فعندما أخذ القلب مكان العقل ليرتقي ويتجه نحو الملأ الأعلى، وصار الحق غاية الأمل، لم يعد هناك حاجة لأي نقاش حول الجبر والاختيار والحسن والقبيح والثواب والعقاب بالطريقة التي أثارت الخلاف بين

^{٢٦} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١، ٣١-٣٠.

^{٢٧} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١، ٣١-٣٢.

المتكلمين. فالله في نظر هذا الصوفي وفي نظر الصوفية الحقيقيين مشهود ومحبوب وليس معبوداً
فحسب.^{٢٨}

أن منهج القشيري في استخراج الإشارة من العبارات هو أسلوب أدبي في جوهره، لأنه يقوم
على فهم عميق للفظ - سواء كان مفرداً أو مركباً - فهماً يستند إلى أسس راسخة في اللغة والاشتقاق
والإعراب والبلاغة. كما أن الأسلوب الذي يستخدمه القشيري في التعبير هو أسلوب أدبي يتميز
بخصائص الكتابة الأدبية والصياغة الفنية الراقية. وهذا يعني أنه تناول القرآن من منظور أدبي وعبر عن
رؤيته بأسلوب أدبي متميز.^{٢٩}

إن الظواهر الكونية التي وردت في القرآن تمثل مصدراً لا ينضب من الإشارات، وهي من أهم
الأدوات التي استخدمها القشيري لتبيين حقائق العلم الصوفي. فالشمس والقمر، والليل والنهار،
والجبال والبحار، والسحب والأمطار - كل هذه الظواهر تحمل معانٍ عميقة تساعد في توضيح الفروق
الدقيقة بين الطوالع واللوامع واللوائح، وبين علم اليقين وحق اليقين، وكذلك بين علوم الإنسان العقلية
والمعارف اللدنية.^{٣٠}

لقد أمضى القشيري وقتاً طويلاً في دراسة الحالات النفسية والاستدلالات الوجدانية في
الأسلوب القرآني، فكشف من خلال ذلك العديد من أسرار الإعجاز القرآني، كما أظهر عبقريته في

^{٢٨} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١، ٣٤.

^{٢٩} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١، ٣٥.

^{٣٠} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١، ٣٥.

التذوق الفني. وليس هذا مستغرباً من صوفي يمتلك بصيرة نافذة، وشاعر يتمتع بحس مرهف دقيق،

وباحث متعمق في أعماق النفس البشرية، وأديب بارع في التعبير عما يتذوقه ويشعر به.^{٣١}

^{٣١} عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، المجلد ١، ٣٧.